سالم زين باحميد

التصوّف الوجه الآخر

ابريل ٢٠١٨م

التصوف الوجه الآخر – / تزكية / فكر
سلسلة اصدارات مكتبة الشيخ سالم زين (٥)
اليمن – حضرموت – سيئون / مدودة

ضمن فعاليات الذكرى الخامسة للافتتاح ٢٠١٨م

حقوق الطبع محفوظة

للتواصل مع إدارة المكتبة:
٠٠٩٦٧٧٧٧٤٣٤٤٩٥
00967777209710
البريد الالكتروني msbahumaid@gmail.com

استهلالٌ

بفضل الله تعالى تحتفلُ "مكتبة الشيخ سالم باحميد" بإيقاد شمعتها الخامسة.. كَيَدٍ تكتملُ أصابعُها الخمسة لتشاركَ في رسمِ نقوشٍ من الوعي في جدران المجتمع..

مكتبة الشيخ سالم زين باحميد (١٩٣٦-٢٠١٢م) الأديبُ الشاعرُ -رحمه الله تعالى- كانت انطلاقتها في ابريل ٢٠١٣م. وهي بحمد الله؛ **تفخر** خلال هذه المسيرة القصيرة بما أقامته من أنشطة واستضافت من شخصيات، ونفذت من جلسات ومسابقات ثقافية، كذلك ماعقدته من شراكات مع جهات عدّه، فيما يسهم بتحريك عجلة الوعي والثقافة.. و**تتشرف** بما حضيت به من قبول وزيارات سواء من داخل حضرموت أو من خارجها، فمشكورون من قادتهم خطاهم الوفيه وهممهم الدافعة إلى مبنى المكتبة.. شخصياتٌ مرموقة وقاماتٌ مختلفة، ونساءٌ وفتيات.. وشبابٌ دائبٌ انحنت ظهورهم فوق صفحاتِ الكتاب؛ لتزهر قلوبُهم وتشرق شمسُ المعرفة في عقولهم. **والمكتبة تشكرُ** ما يُقَدَّم لها من أفكار ومقترحات، من طامحين لرفع جذوة التنوير ومشاعل الوعي بالتراث والثقافة..

وهانحن اليوم نشهد بوادر ظاهرة ثقافية صحية في بروز بعض الأندية الثقافية والأكاديميات العلمية، كذلك الديوانيات الشهرية على منوال الصوالين في العالم العربي..

وكما عوَّدت المكتبة جمهورها الرائع في ذكرى افتتاحها السنوية، أن تتحفه بإصدار جديد، ضمن سلسلة إصداراتها.. وحياتنا تعج في أمواج التكنلوجيا والمادّية؛ تزفُّ المكتبة هذا العام ٢٠١٨ إصدارها عن موضوع ثريٍ مختلفٍ فيه وهو **"التصوف"**؛ صفحاتٌ كتبها "الشيخ سالم" صاحب المكتبة وقدِّر لها أن ترى النور في هذا العام.

إدارة المكتبة؛؛
شهر رجب الحرام ١٤٣٩هـ

وَسْـمٌ

الشيخ "سالم زين باحميد" مشعلُ فكرٍ حضرميٍ، و رسالةُ نورٍ وتنوير، وأيقونةٍ حضرمية تشكلت من ينابيع فكرية ومعرفية متعددة؛ فخطَّ لنا رسالته التنويرية.. و أبا إخوانهُ وأنجالهُ إلا استمرارَ رسالتِه.. رسالة التنوير والوسطية والاعتدال ونبذ العنف، التي اتخذت من القوة الناعمة أسٌّ لها في النفاذ إلى العقول. **القلم** خطَّ به عديد المؤلفات، و**الكتاب** حفظ به فكرا رائعا.

كان الشيخ "سالم" رحمه الله منفتحًا على جميع الثقافاتِ ويؤمنُ بالحوارِ بينها، وأنَّ الفكرَ الإنساني في محصلتهِ الأخيرة تجربةٌ إنسانيةٌ عامة. رحم الله الشيخ "سالم زين باحميد" وغفرَ لهُ وأسكنه فسيحَ جنَّاته. في ذكرى وفاته السادسة إذا كان قلبهُ تو قف عن الخفقان، فإن فكرهُ وإنتاجهُ المعرفيّ والإنساني مشعلاً ما زال يضيءُ وينيرُ الدروب.

كتبه الدكتور

حسن صالح الغلام العمودي

نائب عميد كلية الآداب للدراسات العليا والبحث العلمي - جامعة حضرموت

تقديم

الحمد لله الواحدِ القهارِ العزيزِ الغفّارِ، مُكَوّرِ الليلِ على النهارِ تَذْكِرَةً لأُولي القلوبِ والأبصارِ، وتبْصِرَةً لِذَوِي الأَلْبابِ والاعتِبارِ، الذي هَدَى مِن خَلْقِهِ مَن اصطفاهُم فزَهَّدَهُم في هذه الدارِ، وأشهد أن لا إله إلا اللهُ العزيزُ الجبّارُ، وأشهد أنَّ سيدنا محمدًا صلى الله عليه وسلم نبيُّهُ العربيُّ المختارُ، الذي اصطفاه ربه وجعله إمامًا للمتقين وسَيِّدًا للأبرارِ.اللهم صلِّ على سيدنا محمد وعلى آله وصحابته أهل الأَسرارِ، وعلى مَن سار خَلْفَهم مِن الزاهدين والصوفيةِ الأخيار.

أما بعد : فإن بعض الناس يقيم الدنيا ويقعدها حول مصطلح محدد، ويعتبر أن كل ما ينسب إلى هذا المصطلح وفق رؤيته له أمر غير مقبول لمجرد نسبته إلى ذلك المصطلح ، ومن ضمن المصطلحات التي كانت محل جدل بين الناس مصطلح " التصوف". رغم أنه قيل قديما " لا مشاحة في الاصطلاح "، وإنه ليخيل إليَّ أن لو اصطلح الناس على تسمية ما يربي القلب ويزكيه ويطهره وينقيه ويرقيه ،إحسانا أو تزكية ، فلربما لم يجرِ ما نعاني منه اليوم من مصطلح التصوف ، لأنه لا يجرأ أحد عندها أن يقول لا نريد الإحسان ولا الكلام عنه وهذا هو منهج التصوف .

فالصوفية أو التصوف هو أحد أركان الدين الثلاثة (الإسلام، الإيمان، الإحسان)، فمثلما اهتم الفقه بتعاليم شريعة الإسلام، وعلم العقيدة بالإيمان، فإن التصوف اهتم بتحقيق مقام الإحسان وهو ((أن تعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك))، وهو منهج أو طريق يسلكه العبد للوصول إلى الله، أي الوصول إلى معرفته والعلم به ، وذلك عن طريق الاجتهاد في العبادات واجتناب المنهيات، وتربية النفس وتطهير القلب وتخليته من الأخلاق السيئة، وتحليته بالأخلاق الحسنة . وهذا المنهج استمد أصوله وفروعه من القرآن الكريم والسنة النبوية واجتهاد العلماء فيما لم يرد فيه نص، فهو علم كعلم الفقه له مذاهبه ومدارسه ومجتهدوه وأئمته الذين شيدوا أركانه وقواعده - كغيره من العلوم - جيلاً بعد جيل حتى جعلوه علما سموه علم التصوف، أوعلم التزكية، وعلم الأخلاق، فألفوا فيه الكتب الكثيرة بينوا فيها أصوله وفروعه وقواعده، ومن أشهر هذه الكتب : الحِكَم العطائية لابن عطاء الله السكندري قواعد التصوف، وإحياء علوم الدين للإمام الغزالي، والرسالة القشيرية للإمام القشيري وغيرها.

انتشرت حركة التصوف في العالم الإسلامي في القرن الثالث الهجري كنزعات فردية تدعو إلى الزهد وشدة العبادة، حين غلب على الناس الإنغماس في الشهوات والميل الكبير إلى حب الدنيا ، ثم تطورت تلك النزعات بعد ذلك حتى صارت طرقا مميزة متنوعة معروفة باسم الطرق الصوفية، والتاريخ الإسلامي زاخر بعلماء مسلمين انتسبوا للتصوف مثل الحسن البصري والجنيد والجيلاني والإمام النووي والغزالي والعز بن عبد السلام، ومن القادة مثل صلاح الدين الأيوبي ومحمد الفاتح والأمير عبد القادر وعمر المختار وغيرهم .

وقد نتج عن كثرة دخول غير المتعلمين والجهلة في طرق التصوف وما نتج عن ذلك من ممارسات خاطئة تنشر الخرافات، مما عرضها للهجوم من قبل المدرسة السلفية باعتبارها بدعة دخيلة على الإسلام ، حيث عمد بعض الناس إلى نقل وإشهار تلك الأفعال والشطحات وتخليط كثير من المنتسبين للتصوف وهم يخالفون حقيقة مذهب القوم ومناهجهم الصحيحة وتتبعوا عورات هؤلاء المنتسبين وأظهروها للعوام وقالوا لهم هؤلاء هم الصوفية المبتدعة، فصدقهم كثير من الناس ولا سيما من لا علم له بالحقيقة فأيدوهم وساعدوهم في توسعة هذه الحملة والترويج لها باسم محاربة المبتدعة، كما أن البعض لم يفهم - أو لا يريد أن يفهم - ما أراده القوم من بعض مصطلحاتهم ومقولاتهم فأساء تفسيرها وحملها على أسوأ محمل وطعن فيهم بما لم يريدوه ، يقول الإمام الحداد رحمه الله :

وسلّم لأهلِ الله في كلِ مُشْكِلٍ لديكَ . لديهم ثابتٌ بالأدلةِ

وإذا كان تخليط بعضهم يلغي أو يسوغ أن يلغي من انتسبوا إلى التصوف بالكلية فإنه يلزم منه إن رأينا من خلط وعكر من المتفقهه أن نلغي كتب الفقه ونشغب على الفقهاء ونقع في أعراضهم، أو رأينا من وضع في الحديث ممن انتسب له وكان له فيه باع أن نلغي أيضا كتب الحديث ونشغب على المحدثين ونطعن في جدوى دراسة المصطلح وهكذا الحديث في التفسير والتاريخ وسائر العلوم .

وقد أجاد المؤلف لهذا الكتيب في عرض حقيقة التصوف الحق الذي انتهجه سلفنا الصالح في حياتهم ومشوا وفق منهجه خال عن الشوائب التي علقت به وذلك عرضا مميزا وفريدا بأسلوب واضح وشيق ومبسط مستشهدا بأقوال الأئمة والعلماء الأعلام المعتمدين من سلف هذه الأمة مثل الإمام مالك رحمه الله القائل

((من تفقَّه ولم يتصوف فقد تفسق ومن تصوف ولم يتفقه فقد تزندق ومن جمع بينها فقد تحقق)) ويفهم من قول الإمام مالك هذا أنه كان فقيها صوفيا .

فمن أراد أن يعرف الحقيقة ويتأملها بحيادية تامة دون تحسس أو الجري وراء العاطفة التي في ذهنه فليقرأ هذا الكتيب بروية وإنصاف ليصل الحقيقة الغائبة عند كثير من الناس .

نسأل الله الكريم الرحيم أن يتغمد مؤلف هذا الكتيب برحمته ويسكنه فسيح جناته، وأن ينفع بمؤلفه هذا العباد وينير بصائرهم، وأن يجعل ذلك في ميزان حسناته وصدقة جارية تدر عليه بالثواب الجزيل فإن ذلك علم ينتفع به.

وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم والحمد لله رب العالمين .

كتبه الفقير إلى الله راجيا عفوه وغفرانه
الشيخ علي بن عبدالله بن محمد باحميد
إمام وخطيب مسجد جامع مدودة
٢٦/شهر رجب الأصب عام ١٤٣٩هـ الموافق ٢٠١٨/٤/١٢م

قراءةٌ في "التصوّف، الوجه الآخر"

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله وعلى آله وصحبه ومَن والاه، أما بعد

فقد شكّل "التصوّف" قضيةً إشكاليّةً في التاريخ الإسلامي الحديث، حيث دارت حوله خلافاتٌ وسجالاتٌ بين أطرافٍ اعتبرته دخيلًا على الإسلام من جهة، وحمّلته تبعات تأخر المسلمين، وانحرافهم عن منهج الإسلام الحق، وبين أطرافٍ من جهة أخرى دعت إليه باعتباره منهجًا سلوكيًّا أصيلًا يقتضيه الفهم الصحيح للإسلام، ولسيرة النبي صلى الله عليه وآله وسلم، ولسيرة الصحابة رضي الله تعالى عنهم، والعلماء المُتّفق على فضلهم وعلمهم.

وقد مالت الكفة مؤخرًا إلى الطرف الأول المناوئ للتصوّف، لا لقوة حجةٍ ودليل، بل لعوامل أهمها:

- طغيان الجهل والانحراف عن ضوابط الشرع على أتباع التصوّف، حتى صارا سمتان مميّزتان لأغلبهم، ناهيك عن انتشار مذاهب الاتحاد والحلول ورفع التكاليف بين مَن اشتهروا بكونهم من أهل التصوّف، مما أعطى لخصوم التصوّف مادةً دسمةً يستظهرون بها على أتباع الصوفية.
- وجود تيارٍ منحرفٍ عن منهج أهل السنة والجماعة يحظى بدعمٍ سياسيٍ ومالي، حيث كُرّست أموالٌ نفطيةٌ لنشر مذهبه عبر العالم، وهذا التيار استهدف عقيدة أهل السنة والجماعة عبر نشر مذهب التجسيم، والطعن في أئمة الدين، واستهدف مناهج الاستنباط السنّيّة للأحكام الشرعية من الكتاب والسنة عبر مهاجمة المذاهب الفقهية وأصولها والتمذهب بها، واستهدف منهج تزكية النفوس عبر مهاجمة التصوّف، الذي كان له النصيب الأكبر من هذا الاستهداف.

- كثرة الدراسات الاستشراقية التي عملت على إبراز بعض الشطحات والانحرافات التي عُرفت عن بعض مَن اشتهروا بكونهم من الصوفية، وتصوير التصوف وكأنه محصورٌ في هذه الشطحات والانحرافات، حتى حصل ربطٌ ذهنيٌ ضروري عند الناس بين التصوّف وبين هذه المخالفات، وتغافل هؤلاء عن أن أول مَن قام بالرد على هؤلاء المنحرفين هم أئمة الصوفية من أمثال الإمام الجنيد والإمام الغزالي وأبو طالب المكي، وغيرهم. وما هذه المغالطات من قبل المستشرقين إلا بقصد القضاء على التصوف، بعد ما لقيه أجدادهم المستعمرون من هزائم على يد أتباع الطرق الصوفية التي حفظت على الناس دينهم طيلة عقود الاحتلال الصليبي لبلاد المسلمين، هؤلاء الأتباع الذين سطّروا أروع صور الجهاد والاستبسال في مقاومة هؤلاء الغزاة ودحرهم عن بلاد المسلمين.

وبين أيدينا سفرٌ موسومٌ بـ "التصوّف، الوجه الآخر" لمؤلّفه، الشاعر الأديب "سالم زين باحميد" رحمه الله تعالى، جَهد فيه مؤلّفه لنفض الغبار عن مفهوم "التصوّف"، وإزالة الغبش الذي ران على أصالته جراء عقودٍ من الهجمات الداخلية والخارجية.

وقد بدت هذه الغاية واضحةً من خلال العنوان، حيث يدل على هدف المؤلف في بيان وجهٍ آخرٍ للتصوّف كتصحيحٍ للوجه الذي استقرّ في أذهان الناس نتيجة العوامل المذكورة آنفًا.

وقد سلك المؤلف رحمه الله تعالى إلى غايته سبيلًا منطقيًا تدرّجيًا زيّنه بلغةٍ أدبيةٍ خففت من جفاف الأسلوب العقلي، فجاء كتابه جاذبًا من مبدئه وحتى منتهاه.

وقد استهلّ المؤلف رحمه الله تعالى كتابه بالتأكيد على أن التصوّف قد تمّ حرفُه عن حقيقته بهدف تكريس صورةٍ ممجوجةٍ عنه في عقول الناس، ثم بدأ بإيراد تعريفاتٍ له وردت على لسان أئمّة معتبرين، وفي ذلك تنقيةٌ لمفهوم "التصوّف" على المستوى التصوّري، وهو مدخلٌ لا بدّ منه قبل معالجة هذه الإشكاليّة.

إلا أن اللافت والمهم في استهلال المؤلف رحمه الله تعالى، هو ربطه تلك التعريفات ومضمونها بأوامر النبي صلى الله عليه وآله وسلم لأصحابه رضي

الله تعالى عنهم للاهتمام بإصلاح القلوب، والعمل الدؤوب على تزكية النفوس وتخليتها من آفاتها، ثم تحليتها بآداب وأخلاق الإسلام، وهي لفتةٌ تأصيليةٌ تجعل من "التصوّف" منهجًا وسبيلًا إلى التطبيق العملي لأهم وظائف النبوة، ألا وهي "إصلاح الذات الإنسانية"، وهذا يجعل من التصوّف منهجًا أصيلًا في الإسلام، بل مطلبًا نصّ عليه كتاب ربّنا وسنة نبيّنا.

ثم انتقل المؤلّف رحمه الله تعالى إلى عرض أقوال أئمة أهل السنة والجماعة في الثناء على التصوف، وحكمهم عليه بالحُسن، وفي ذلك تنقيةٌ للتصوّف على المستوى التصديقي، ليُتمّ بذلك بلورة المفهوم الصحيح للتصوّف من جميع جهاته.

بعد ذلك، قام المؤلف رحمه الله تعالى بمعالجة مسألةٍ مهمةٍ قلّ من تعرّض لها، وهي البحث في العوامل التي حرفَت صورة التصوّف عن حقيقتها في أذهان الناس في أيامنا، وانتهى إلى أن هناك عاملين أدّيا إلى هذا الانحراف:

- المستشرقون الذين مُني أجدادهم بهزائم متلاحقةٍ على يد أتباع الطرق الصوفية، ممّا أدى إلى اندحارهم عن أراضي المسلمين أذلاء صغراء، فأرادوا القضاء على مصدرٍ مهمٍ من مصادر قوة المسلمين.

وفي ذلك أشار المؤلف رحمه الله تعالى إلى تجربة الإمام الغزالي رحمه الله تعالى، الذي أصّل للتصوّف في كتابه العظيم "إحياء علوم الدين"، الكتاب الذي كان من نتاجه جيل صلاح الدين الأيوبي الذي حرّر المسجد الأقصى من رجس الصليبيين.

وبرأيي فإن هذه التجربة تجب قراءتها بفهمٍ عميقٍ يُعين على إيجاد حلولٍ لواقعنا المعاصر الذي لا يقلّ سوءًا، إن لم يزد، عن عصر الإمام الغزالي، وعن حسن تفهّم دور التصوّف في دفع تلك التجربة نحو النجاح.

- بعض المنتسبين إلى التصوّف، ممّن غلب عليهم الجهل بالأحكام الشرعيّة، الذين غالوا في سلوكهم بغير ضوابط شرعيةٍ، فانحرفوا عن جادة الصواب.

وأرى بأن هناك عوامل أخرى ذكرتُها في مقدمة هذه الورقات، وهي:

- أصحاب الانحرافات العقائدية الذين يدّعون الانتساب إلى التصوّف ممّن يدينون بمذاهب الاتحاد والحلول ورفع التكاليف.
- أصحاب المذاهب المنحرفة الذين حَظَوا بالدعم المالي والسياسي لهدم منهج أهل السنة والجماعة في العقائد، وفي مناهج الاستنباط، وفي التمذهب الفقهي، وفي السلوك (التصوّف).

انتقل المؤلف رحمه الله تعالى بعد ذلك إلى تفنيد بعض الدعاوى العريضة التي ما فتئ خصوم التصوّف يردّدونها، وأهمها دعوى "عدم وجود التصوّف أيام النبي صلى الله عليه وآله وسلم، وصحبه الكرام رضي الله عنهم جميعا"، فبيّن رحمه الله تعالى أن حقيقة "التصوف" ومضمونه وُجدا مع بداية الرسالة، وأوامر النبي صلى الله عليه وآله وسلم لأصحابه بتزكية نفوسهم خير دليلٍ على ذلك. أما عن وجود "التصوف" كعلمٍ له مصطلحاته وقواعده ومؤلفات خاصة به، فلم تكن لذلك أيّ حاجة في ذلك الزمان، بل استدعته فيما بعد بداية الانحراف السلوكي عند المسلمين بعد العصر الذهبي.

وحال التصوّف في ذلك حال بقية العلوم الإسلامية التي استدعت الظروف الاجتماعية نشوؤها، فعلم التوحيد بدأ كعلمٍ بعد الانحرافات الفكرية التي دخلت إلى المجتمع الإسلامي نتيجة الاحتكاك مع مجتمعات غريبة تدين بأفكارٍ مختلفة، وعلم الحديث الشريف نشأ مع تطاول الزمان والخوف من الدسّ في كلام النبي صلى الله عليه وآله وسلم ما ليس منه، وهكذا بقية العلوم الإسلامية التي لم تكن في صدر الإسلام، ثم دعت الضرورة المستجدة إلى بيان مناهجها وتدوينها.

كما حمل المؤلف رحمه الله تعالى على الفريق الآخر الذي ادّعى الانتساب إلى التصوّف ولم يعمل به، وبيّن أن "التصوّف" ليس حفظ مصطلحات القوم وترديد أقوالهم، بل حقيقته هو تمام العمل بتلك الأقوال، وحسن الالتزام بتلك المناهج، فشتّان بين مَن عرّف العسل وحلاوته، وبين من ذاقه ووقف على حقيقة تلك الحلاوة.

وختم المؤلف رحمه الله تعالى كتابه بالدعوة إلى حُسن قراءة تاريخنا الإسلامي بعيدًا عن ما علق به من شوائب نتيجة كتابته من قبل أعداء المسلمين

من مختلف التوجهات الفكرية، سواءٌ منها من ادّعى أتباعها الانتماء إلى الإسلام، أم لا. وقراءة تاريخنا قراءةً سليمةً تُبرز أهمية التصوّف الصافي، وأثر الطرق الصوفية في الحفاظ على المجتمع الإسلامي، والارتقاء به، والصمود في وجه هجمات أعدائنا الفكرية والعسكرية.

ما أحوج مكتبتنا الإسلامية اليوم إلى مؤلفاتٍ تنفض الغبار عن التصوّرات الإسلامية الأصيلة التي شابتها الكثير من الشوائب نتيجة الهجمات المُركّزة المُتلاحقة عليها من قِبل أعداء الإسلام. فمكتبتنا تعاني اليوم من فقرٍ شديدٍ في مؤلفات تُفنّد الأفكار الدخيلة في مجتمعاتنا، والمتكاثرة نتيجة ثورة الإعلام والتدفق المعلوماتي الهائل، من مثل "الإلحاد" و"العلمانية" و"دعاوى تجديد الدين" و"التصوّف"، وغيرها من المواضيع الهامة، فلا بدّ من مناقشة هذه الأفكار بلغةٍ عصريةٍ تتناسب مع الخطاب التداولي المعاصر، وتناقش الشُبه بنفس خطابها، وأحسب أن هذا الكتاب الذي بين أيدينا "التصوّف، الوجه الآخر" يسدّ مسدًا في هذه المكتبة، ويسير خطوةً نحو تحقيق هذا المشروع المنظور، فجزى الله تعالى مؤلفه خير الجزاء، وجعل عمله هذا ذخرًا له يوم القيامة، يوم لا ينفع مالٌ ولا بنون، إلا مَن أتى الله بقلبٍ سليمٍ وعملٍ صالحٍ.

وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلّم.

كتبه "محمد حسين المصري"
ماجستير في الأديان والفلسفات المقارنة
إسطنبول - ١١ نيسان ٢٠١٨ م

التصوّف
الوجه
الآخر

بسم الله الرحمن الرحيم

التَّصَوُّفُ موضوعٌ "عميقٌ" و "واسعٌ" و "متشعبٌ"؛ و لكن إذا استطعتُ أن أثير المشاعرَ للاستزادةِ و الرغبة في معرفة عوالمهِ و النظر فيه بجدِّيةٍ و نزاهةٍ و تجردٍ بحثاً عن الحقيقة، فقد وصلتُ إلى ما كنتُ أريده أو إلى بعضه.

إن كلمة **تصوفٌ** و متصوفة و صوفية ، كلمة قد لا يشعر الكثير بالانجذاب إليها، بل قد يكون العكس و يرى أنها مرادفة للخرافة و الدجل و الشعوذة، و الا نقياد الأعمى في مجاهل الحياة هروبا من واقع الحياة و نضالها !! **و ما هكذا التصوف و ما هكذا الصوفية.**

و لكن البعد عنها و عدم معرفة حقيقتها أظهرها بهذا المظهر الباطل. فما قصد الصوفية في كل عصر و زمان؛ إلا العودة بالمسلمين إلى ظلال الأنس بالله تعالى ونعيم مناجاته و سعادة قربه بإرجاع روحانية الإسلام إليه ..

و للتصوُّفِ **تعاريف كثيرة** منها تعريف سيد الطائفة الإمام الجنيد المتوفى عام (٢٩٧هـ) إذ يقول : "إن التصوف هو صفاء المعاملة مع الله". و قال

بعضهم: "التصوف كله أخلاق ، فمن زاد عليك بالأخلاق زاد عليك بالتصوف"..

أما تعريف التصوف بمعنى العلم المعروف المدون في كتبهم فهو : (علم بأصول يعرف بها صلاح القلب و سائر الجوارح).

وكان رسولُ الله صلى الله عليه وسلم يوجهُ اهتمامَ الصَّحابة لإصلاح قلوبهم ويبيِّن لهم بأن الإنسانَ متوقفٌ على إصلاح قلبهِ و شفائه من الأمراض الخفية و العلل الكافية، و هو الذي يقول : (ألا و إنَّ في الجسد مضغة؛ إذا صَلُحتْ صَلُحَ الجسدُ كله و إذا فسدتْ فسد الجسدُ كله، ألا وهي **القلب**) رواه البخاري و مسلم .

كما كان عليه الصلاة و السلام يعلمهم أن محل نظر الله إلى عباده إنما هو القلب : (إن الله لاينظر إلى أجسادكم و صوركم و لكن ينظر إلى قلوبكم)

فما دام صلاحُ الإنسانِ مربوطًا بصلاحِ قلبه الذي هو مصدرُ أعماله الظاهرة ، تعيَّنَ عليهِ العملُ على إصلاحِه **بتخليته** من الصفات المذمومة التى نهانا الله عنها و**تحليته** بالصفات الحسنة التي أمرنا الله بها. و عندئذ يكون القلبُ سليمًا صحيحًا و يكون صاحبه من الفائزين الناجين يوم لا ينفع مال و لا بنون؛ إلا من أتى اللهَ بقلبٍ سليم .

التصوف هو الذي اهتم بهذا الجانب لقلبي؛ بالإضافة إلى ما يقابله من العبادات البدنية و المالية و رسم الطريق العملي الذي يوصل المسلم إلى أعلى درجاتِ الكمالِ الإيماني و الخُلُقي.

علمُ التَّصوفِ عِلـمٌ ليسَ يعرفهُ إلاَّ أخـو فـطـنةٍ بالعلمِ معـروف
و ليسَ يعرفهُ من ليس يشـهدهُ و ليس يشهد ضوءَ الشمسِ مكفوفُ

فعمادُ التصوف تصفيةُ القلبِ من أوضار المادة، و قوامهُ صلة الإنسان بالخالق العظيم . فالصوفي من صفا قلبه لله و صفت معاملته.

و اختلفوا في **اشتقاق كلمة (التصوف)** و فيه أقوال كثيرة.. حتى قال أبو الفتح السبتي رحمه الله :

تنازع الناسُ في الصوفيِّ و اختلفوا و ظنَّه البعضُ مشتقاً من الصُّوفِ
و لستُ أمنحُ هذا الاسمَ غير فتىً صفا فصوفيَ حتى سُّمي الصُّوفي

و قال آخر :

ليس التصوفُ لبسُ الصوفِ ترقعهُ ولا غناؤكَ إنْ غنَّى المغنّونا
و لاصياحٌ ولا رقصٌ و لا طربٌ و لااختباطٌ كأنْ قد صرتَ مَجنونا
بل التصوفُ أنْ تصفو بلا كدرٍ و تتبعَ الحقَّ و القرآنَ و الدينا
و أن تُـرى خاشعًا للهِ مكتئباً على ذنوبكَ طولَ الدهرِ محزونا

ومفهـومُ الصـدقِ عنـد عـوام المسـلمين قـاصرٌ عـلى صـدق اللسـان ، ولكـنَّ السَّـادة الصـوفية قصـدوا بالصـدق مفهومـه العـام الـذي يشـمل بالاضـافة إلى صدق اللسان صدق القلب، وصدقُ الافعالِ والاحوال والاقوال.

فالصـدق بمفهـومهم هـذا؛ صـفةٌ ينبعـثُ منهـا العـزمُ والتصـميمُ والهمـة عـلى الترقـّي إلى معارج الكمال، والتخلي عن الصفات الناقصة المذمومة.

قال الامام مالكُ بن انس صاحبُ المذهب : (من تفقَّه ولم يتصوف فقد تفسَّق، ومن تصوَّف ولم يتفقه فقد تزندق، ومن جمع بينهما فقد تحقق)[1].
وكان للإمام **ابي حنيفة** صلةٌ مع كبار رجال الصوفية، كالشيخ معروفٍ الكرْخي، وداوود الطائي وغيرهما. **والإمام الشافعي** يصرِّح بصحبتهِ للصوفية فيقول: (صحبت الصوفية فأستفدت منهم قولهم الوقت كالسيف ان لم تقطعه قطعك وقولهم نفسسك إن لم تشغلها بالحق شغلتك بالباطل).
لقد **شوّه التَّصوفَ** رجال مغرضون تزيَّوا بزيِّه وانتسبوا إليه فأساؤا إليه بأقوالهم وأفعالهم وسيرتهم والتصوف منهم براء..
ويجبْ أن نفرق بين أدعياء التصوف المنحرفين وبين السَّادة الصوفية الصادقين العارفين. وليس المتصوف بإنحرافهِ وشذوذه ممثلا للتصوف. كما أنَّ المسلم بأفعاله المنكرة ليس ممثلا لإسلامه ودينه .
أما إنكار بعض الناس على هذا اللفظ لأنه لم يسمع في عهد الصحابة والتابعين، مردودٌ. إذ كثير من الاصطلاحات أحدثت بعد زمن الصحابة واستعملت ولم تنكر. كالنحو والفقه والمنطق[2].. والتصوف هو دعوة إلى تزكية النفوس وصفاء القلوب وإصلاح الاخلاق والوصول إلى مرتبة الاحسان . وسُمِّي ذلك تصوفا.. وإن شئت فسمه الجانب الروحي في الاسلام.. أو الجانب الاحساني.. أو الجانب الاخلاقي.. أو سمِّهِ ما شئتَ مما يتفق مع حقيقته وجوهره . إلا أنَّ اسمه المتوارث بين علماء الامة هو "التصوف".

[1] حاشية العلامة العدوي على شرح الإمام الزرقاني على متن العزية في الفقه المالكي، ج٣ ص١٩٥. و قد نسب بعض أهل العلم هذه المقولة للشيخ إبراهيم الدسوقي، وهو من شيوخ التصوف.
[2] والحركة الاسلامية والتجديد وغيرها.

وقد يتساءل الكثيرون عن السبب في عدم انتشار الدعوة إلى التصوف في صدر الاسلام، وعدم ظهور هذه الدعوة الا بعد عهد الصحابة والتابعين ؟ والجواب عن هذا : إنه لم تكن من حاجة اليها في العصر.الاول لان اهل ذلك العصر ـ كانوا أهل تقوى وورع و أرباب مجاهدات وإقبال على العبادة بطبيعتهم، وبحكم قرب اتصالهم برسول الله صلى الله عليه وسلم . فكانوا يتسابقون ويتبادرون في الإقتداء به صلى الله عليه وسلم في ذلك كله فلم يكن ثمة ما يدعوا إلى تلقينهم عِلمًا يرشدهم إلى أمرٍ همْ قائمون به فعلا . وإنما مثلهم في ذلك كله كمثل العربي القُحْ يعرف اللغة العربية بالتوارث كابراً عن كابرٍ، حتى أنه ليقرض الشعر البليغ بالسليقة والفطرة دون ان يعرف شيئا من قواعد اللغة ، والاعراب ، والنظم ، والقريض . فمثل هذا لا يلزمه أن يتعلم النحو ويدرس البلاغة؛ ولكن علم النحو وقواعد اللغة والشعر تصبح لازمة وضرورية عند تفشّ اللحن وضعف التعبير.. أو لمن يريد من الاجانب أن يتفهمها ويتعرف عليها، أو عندما يصبح هذا العلم من ضروريات الاجتماع كبقية العلوم التي نشأت وتألفت على توالي العصور في أوقاتها المناسبة.

فالصحابة والتابعين وإن لم يتسموا بإسم المتصوفين؛ كانوا متصوفين فعلا وإن لم يكونوا كذلك إسما. وماذا يزاد بالتصوف أكثر من أن يعيش المرء لربّه لا لنفسهِ ويتحلى بالزهد وملازمة العبودية والإقبال على الله بالقلب والروح في جميع الأوقات، وسائر الكمالات التي حَفلَ بها الصحابة والتابعون من حيث الرُّقي الروحي إلى أسمى الدرجات .

فهم لم يكتفوا بالإقرار في عقائد الايمان والقيام بفروض الاسلام بل قرنوا الإقرار بالتذوق والوجدان. و زادوا على الفروض الإتيان بكل ما استحبه الرسول صلى الله عليه وسلم من نوافل العبادات وأبتعدوا عن المكروهات فضلا عن المحرمات حتى استنارت بصائرُهم وتفجَّرت ينابيعُ الحكمةِ من قلوبهم وفاضت الأسرار الربانية على جوانحهم، وكذلك شأن التابعين وتابعي التابعين وهذه العصور الثلاثة كانت أزهى عصور الاسلام وخيرها على الاطلاق وجاء عن رسول الله صلى الله عليه وسلم: (خير القرون قرني هذا فالذي يليه والذي يليه) كما في الصحيحين.

إن الزهد الاسلامي الحق يسلم إلى الرفعة والعلو والنباهة والسمو، وما كانت تمتد الاعناق وتطمح العيون إلى المسلمين وقتما كانوا متكيفين بأداب الاسلام : ((مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ اللَّهِ ۚ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ ۖ تَرَاهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا ۖ سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ السُّجُودِ))٢٩ سورة الفتح. هؤلاء ومن على شاكلتهم الزهاد الحق، يبتغون فضل الله من مواضعه. ويستسقون الماء الزلال من منابعه ثم يتدفقون على السيوف وتفيض من بين أصابعهم في ذات الله الالوف :

نفسي فداءٌ بني أمِّ هممُ خلطوا
يومَ العروبةِ أورادًا بأورادِ
في المجدِ والشرفِ العالي ذوي أملٍ
وفي الحياةِ وفي الأموالِ زهادِ

وفي كتاب (شهيد المحراب عمر بن الخطاب) يقول الاستاذ الاسلامي الكبير عمر التلمساني: لا أكتب عن عمر رضي الله عنه مؤرخا ولكني أكتبُ عنه وليًّا من أولياء الله.. عمر الذي جمَّلته هذه الولاية في كل مأخذ من مآخذ الحياة ، لا تفارقه في أي مذهب من مذاهبها تسدده وترشده وتهديه إلى كل ما يمكن ان يعرض لمسلم . ولاية الله صفته.. وخشية الله سريرته وعلانيته. وما يستهويني شيءٌ في الحياة ما يستهويني حب اولياءِ الله .

إن ولاية عمر رضي الله عنه جعلتني استعرض كل ما ربّى عمر المسلمين عليه من إيثار ، وتضحية ، وزهد ، وورع ، وأنفة ، وعدالة ، وصدق ورجولة ، وعزوف عن العاجل وحرصا على الآجل. فالدنيا عند الله أتفه من أن يجعلها ثوابا لمؤمن أو عقاب لكافر ، وما عند الله خير وأبقى من كل شيئ . وكان من جراء ذلك ان سما عمر وسما الذين معه لإنهم فهموا منه واخذوا عنه..

فلو أتيح لنا ان نسلك سلوكه ونأخذ مآخذه لما انحدرنا إلى القاع السحيق الذي نعاني من واقعه وما نحس وما نرى وما نجد ..

وقد بنى أئمة التصوف الأوَّلون أصول طريقتهم على الكتاب والسنة وعلى عقيدة أهل السنة والجماعة.. يقول سهل بن عبدالله التستري المتوفى عام ٢٨٣هـ رحمه الله: (**أصولنا سبعة اشياء** : التمسك بكتاب الله تعالى ، و الاقتداء بسنة رسوله صلى الله عليه وسلم ، و أكل الحلال ، وكف الاذاء ، واجتناب الآثام ، والتوبة ، وأداء الحقوق) .

قال ابن خلدون : (إن التصوف من العلوم الشرعية الحادثة في الملة. وأصله ان طريقة هؤلاء القوم لم تزل عند سلف الأمة وكبارها من الصحابة

والتابعين ومن بعدهم طريقة الحق والهداية، وأصلها العكوف على العبادة والإنقطاع إلى الله تعالى والإعراض عن زخرف الدنيا وزينتها، والزهد فيما يقبل عليه الجمهور من لذة ومال وجاه . والإنفراد عن الخلق في الخلوة للعبادة وكان ذلك عاما في الصحابة والسلف . فلما فشا الإقبال على الدنيا في القرن الثاني وما بعده وجنح الناس إلى مخالطة الدنيا إختص المقبلون على العبادة بإسم الصوفية .

وصار التصوف في الملة علما مدونا بعد ان كانت الطريقة عبادة فقط وكانت احكامها إنما تتلقى من صدور الرجال.)[٣]

والصوفية تعني معالجة أمراض القلب ولايمكن علاجها إلا بإكتشاف أمراض القلب والتعرف على دقائق عِلَلِه . وما الطريق العملي إلى معالجة هذه الامراض والتخلص منها ..؟

التصوف هو الذي اختص بمعالجة الأمراض القلبية وتزكية النفس والتخلص من صفاتها الناقصه.

تُطَبِّبُ جسمَكَ الفاني لتبقى وتتركُ قلبكَ الباقي مريضا ؟

و **التصوف** كما قال الدكتور زكي مبارك المتوفى ١٩٥٤م : (التصوف هو الصدق في العواطف الدينية. الصدق الصادق الصدوق الذي لا يثنيه وعد، ولايرهبه وعيد.. والرجل الصالح يعظ بالقدوة ويعظ بالقول، فهو شعلة هادئة حين يعمل وحين يقول).

[٣] راجع مقدمة ابن خلدون ص ٣٢٨.

التصوف ليس كما يظن بعض الناس قراءةُ أورادٍ، وحلق ذكر فحسب.. لقد غاب عن أذهان الكثير، أنَّ التصوف منهجٌ عمليٌ كامل يحقق إنقلابَ الإنسان من شخصية منحرفة إلى شخصية مسلمة مثالية متكاملة، وذلك من الناحية الإيمانية السليمة، والعبادة الخالصة، والمعاملة الصحيحة الحسنة والاخلاق الفاضلة. ومن هنا تظهر **أهميةُ التصوف** وفائدتة، ويتجلى لنا بوضوح أنه روح الإسلام وقلبه النابض إذ ليس هذا الدين أعمالا ظاهرة وأمورًا شكلية فحسب لاروح ولاحياة فيها،

ولهذا نعرف مدى شراسة وضراوة حملات المضللين الصليبيين والمستشرقين ومن لفَّ لفهم في تاريخ الإسلام من إفتراءات وتراهات وأضاليل واضحة البطلان لم يقصدوا بها إلا التهديم والتشكيك. ومنهم من أراد ان يفسد دين المسلمين بأشياء أضرّ تمسُّ عقائدهم ، فنسب إلى بعض رجال الصوفية اقوالا تخالف عقيدة أهل السنة والجماعة كالقول بالحلول والإتحاد وبأن الخالق عين المخلوق والكون عين المكون ((كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ ۚ إِن يَقُولُونَ إِلَّا كَذِبًا)) .

ومن **المبشِّرين والمستشرقين** من دَرَسَ كُتبَ السادة الصوفية.. وكتب عنهم المؤلفات لأجل التحريف والتزوير والدَّس.. يقصدون بذلك أن يطعنوا الإسلام في صميمه، وأن يسلخوا روح الدين عن جسده، ولقد خُدع بهم بعض السذج الذين يصدقون هؤلاء وهؤلاء فيعتقدون بهذه الأمور المدسوسة ويثبتونها في كتبهم، وكل هذا بعيد عن الصوفية والتصوف.

إن عناية المستشرقين بنشر كتب التراث: التصوف، والفلسفة، وعلم الكلام؛ وهذا الولوع العجيب الغريب بدراسة هذه العلوم ونشر مؤلفاتها لاتفسير له إلا في ضؤ أهدافهم، فهم يتعرفون على هذا اللون من الفكر ويتتبعون شطحاته وإنحرافاته وكيف يقعدُ بالناس عن الجهاد بل عن العمل أي عمل. ويرون كيف يقوم هذا – إذا روجوه – بمهمة أكبر من مهمة الجيوش إذ يُشِّل حركة الأمة ويقعد بها عن المقاومة بل يزيِّن لها الإستسلام عن طريق تمجيد التصوُّف الكاذب وإشاعة الخرافات والأباطيل على نحو ما كتب (لويس ماسينون) الذي خصص حياته للكتابه عن (الحلاّج)؛ فجعله صورة من المسيح في الإسلام وملأ كتابه الضخم عن الحلاّج بحشد هائل من الخرافات و الترّاهات والأباطيل حتى يعمق الهوة بين طائفة من المسلمين تتمسك بالقديم فتنساقَ حسب ظنه إلى إعتقاد ان هذه الخرافات من صميم الإسلام. وطائفة مثقفة بالثقافة الحديثة يتجه من جانبها إلى السخرية و الزراية بهذا الإسلامي الخرافي بل من الإسلام كله.

وكتب العلاّمة طه عبد الباقي سرور في كتابه (التصوف الإسلامي والإمام الشعراني): "رجلان صالحان بُلِيا بأصحاب سؤ، جعفر الصادق وأحمد بن حنبل. أما جعفر الصادق فقد نسبت إليه أقوال كثيرة دونت في فقه الشيعة الإمامية على أنها له وهو بريء منها، وأما الإمام أحمد بن حنبل فقد نسب

إليه بعض الحنابلة آراء في العقائد لم يقل بها، بل هو القائل عن الصوفية : (لا أعلم اقواما افضل منهم)[٤] .

كما دسوا كثيرا على الشيخ (محيي الدين بن عربي) والإمام (عبد الوهاب الشعراني) والإمام حجة الإسلام (الغزالي) وعلى (رابعة العدوية) وغيرهم من أئمة الصوفية وكبارها ".

وإذا عرفتَ دور الإمام حجة الإسلام الغزالي - رحمه الله - ودور مدرسته الشهيرة في قيادة **حركة الإصلاح والتجديد** التي بدأها (نظام الملك) ذلك الوزير الإسلامي العظيم .. وقادت إلى ظهور جيل صلاح الدين .. أدركتَ مدى الحملات الظالمة و المغرضة على الإمام حجة الإسلام الغزالي و الدس عليه. فقد أدرك الإمام الغزالي أن الإصلاح والتغيير لابد ان يبدأ كلُّ فردٍ بتغيير ما بنفسه أولا، ثم يأخذ بعد ذلك بتغيير ما بأنفس الآخرين. وكان الغزالي - رحمه الله – ماهرا في تشخيص ما أصاب الأمة من أمراض سياسية ، وإقتصادية ، وإجتماعية. وعرف أن مردّ ذلك إلى ما أصاب العقيدة من فساد وإنحراف؛ فراح يزيل الأكداس المكدسة من الآثار الباطنية و المذهبية والفلسفية التي رانت على قلب الأمة فحجبت عنها نور الحق و الحقيقة. وركّز هو وتلاميذ مدرسته على ضرورة تطهير المجتمع الإسلامي من الأمراض العقائدية.

٤. الفروع لإبن مفلح المقدسي الحنبلي ، ج٣ ، ص، ١٥٢ دار إحياء التراث العربي. ونقلها عنه البُهوتي الحنبلي في كتابه كشاف القناع عن متن الإقناع (٥/١٨٤).

و القاعدة الأساسية التي جعلها الإمام الغزالي منطلقا لإصلاح المجتمع هي العقيدة الراسخة التي تشمل كل جوانب الحياة الدنيوية و الأخروية. فيجب أن تدور السياسة والإجتماع والإقتصاد وغيرها في فلك العقيدة .

وقد ظهر **كتاب (إحياء علوم الدين)** ليكون الأنموذج الكامل لمعارف الإمام الغزالي، فهو في كلِّ ابوابه يضيف من المعارف مايعمق الفكرة ويؤيد الحكم بل إنه يضيف من خواطره الصافية ما يدل على شفافية نقية، وما يكاد يعدُّ به إلا شاعرا ذا قلب، لا عالما ذا عقل، لذلك كان كتاب الإحياء صورة لقلبه ومرآة لوجدانه مع ما يحمل من ثمار الفكر الواعي والعقل البصير[٥].

ويقول حجة الإسلام الغزالي - في المنقذ من الضلال - : (إني علمت يقينا أن الصوفية هم السالكون لطريق الله تعالى خاصة. و أن سيرتهم أحسن السير وطريقهم أصوب الطرق وأخلاقهم أزكى الأخلاق بل لو جمع عقل العقلاء وحكمة الحكماء وعلم الواقفين على أسرار الشرع من العلماء ليغيروا من سيرهم وأخلاقهم ويبدلوه بما هو خير منه لم يجدو اليه سبيلا فإن جميع حركاتهم وسكناتهم في ظاهرهم وباطنهم مقتبسة من (نور) مشكاة النبوة وليس وراء نور النبوة على وجه الارض نورا يستضاء به). وقاد حركة الإصلاح والتجديد بعد الغزالي واحد من كبار الصوفية شيخ الحنابلة آنذاك في بغداد (الشيخ عبدالقادر الجيلاني) فأسس المدرسة القادرية .. وهكذا أرسى الإمام الغزالي ومدارسه دعائم حركة الإصلاح والتجديد والتغيير التي **تتابعت**

[٥] - من مقال الصوم عند الإمام الغزالي للدكتور محمد رجب البيومي ، مجلة الهلال المصرية يونيو ١٩٨٥م .

حلقاته العملية؛ حتى تم دحر الغزاة الصليبيين وإسترجاع فلسطين وسائر المقدسات .. وبرز جيلُ التحرير الجديد المؤمن التقي المجاهد القوي والعالم العامل بعلمه والفقيه المجاهد والتاجر والمزارع والغني والفقير وكلهم على دين التوحيد الخالص و النخوة الإسلامية التي تأبى الضيم وتسعى إلى معالي الأمور وما عند الله والدار الآخرة ، هكذا كانت الصوفية وهكذا كان يفعل التصوف الحق في نفوس أتباعه و مريديه ..

ومن هنا جاءت محاربة التصوف هذه المحاربه العنيفة من قبل اعداء الاسلام قديما وحديثا فهم يعرفون من أين يهب المسلمون ومن أين تنبعث روح النخوة الإسلامية الصحيحة وكيف ..؟

وما وصل المسلمون إلى هذا الدرك من الإنحطاط والضعف إلا حين فقدوا روح الإسلام وجوهره ولم يتبقى إلا شبحه ومظاهره ..

إننا بقراءة تاريخنا قراءة صحيحة صادقة مجردة .. نعرف ماذا تعني كلمة التصوف وماذا تبعث في النفوس والقلوب ؟ كما نعرف مامدى الحملات الظالمة والمغرضة التي عملت على الدس على هذه الكلمة والإنحراف بها عن مدلولها الصحيح والصريح و الواضح ..

يقول الأستاذ الدكتور(ماجد الكيلاني) في كتابه (هكذا ظهر جيل صلاح الدين) والواقع أن التحليل **للنظام التربوي الذي طبقه عبد القادر الجيلاني** يكشف عن تأثير كبير بالمنهاج الذي إقترحه الغزالي .. فقد وضع الشيخ عبد القادر الجيلاني منهاجا متكاملا، يستهدف إعداد الطلبة والمريدين علميا وروحيا وإجتماعيا ويؤهلهم لحمل رسالة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر،

كذلك توفر لهذا المنهاج فرص التطبيق العملي في الرباط المعروف بإسم الشيخ عبد القادر؛ حيث كانت تجري التطبيقات التربوية والدروس والممارسات الصوفية ويقيم الطلبة والمريدون.

ولكي يكون التعليم ومؤسساته في مستوى أهداف الأمة ومحققا لحاجاتها ومتطلباتها، فقد أنشئ الشيخ عبد القادر الجيلاني رباطا خاصا إلى جوار مدرسته، يسكنه أبناء المهاجرين الذين فروا من الغزو الصليبي على بلاد الشام، ولجأوا إلى بغداد، وقد وضعهم تحت إشراف أفضل المربـين وهو أحد تلاميذه (محمود عثمان بن مكارم النبّال) الذي كان فقيها متصوفا .

وتدل الأخبار المتعلقة بالمدرسة وبرباط المهاجرين التابع لها؛ انها لعبت دورا رئيسيا في إعداد جيل المواجهة للخطر الصليبي في البلاد الشامية فكانت المدرسة تستقبل أبناء النازحين الذين فروا من وجه الإحتلال الصليبي، ثم تقوم بإعدادهم ثم إعادتهم إلى مناطق المواجهة الدائرة تحت القيادة (الزنكية)، وقد إشتهر في ما بعد نفر من هؤلاء الطلاب منهم : (إبن نجاء الواعظ) الذي أصبح فيما بعد مستشار صلاح الدين السياسي والعسكري، و(الحافظ الرهاوي) و(وموسى بن الشيخ عبد القادر) الذي إنتقل إلى بلاد الشام ليسهم في النشاط الفكري والتعبؤي لأبنا الشام، و(موفق الدين إبن قدامة) صاحب كتاب المغني وأحد مستشاري صلاح الدين، وقريبه (عبدالغني) اللذَين وفدا للإلتحاق بمدرسة الشيخ عبد القادر بعد أن نزحت اسرتيهما من نابلس إلى دمشق ..

لقد بذل الشيخ عبد القادر الجيلاني جهودا جبارة وموفقه في إصلاح التصوف وتنقيته من البدع والضلال والكفر. ونجح في إخراج المتصوفه من عزلتهم وسلبياتهم .. وكان من ثمرة جهوده المباركة مساهمة المتصوفه الجدد مع (نور الدين) ثم (صلاح الدين) في حركة الإحياء والتجديد وبعث الأمة من سباتها وتهيئتها للجهاد في سبيل الله .

وقد وصف (إبن تيمية) رحمه الله في كتابه { الفتاوى. علم السلوك. الجزء العاشر} .. كيف تقيَّد الشيخ عبد القادر بالأصول الواردة في القرآن والسنة، والتزامه بتزكية النفس في منهاجه التربوي.. وقد كان تشخيص الشيخ عبد القادر لأمراض عصره كتشخيص الإمام الغزالي؛ بأن المرض الأساسي الذي اصاب الأ مة في ذلك الوقت هو: فساد العقيدة والإنحراف الفكري نتيجة تلوث العقيدة بالفلسفة والأفكار الدخيلة..

و يصور الشيخ حسن البنا التصوف ثلاثة صور :

- صورة : مرفوضة تماما.
- صورة : مشبوهه مدخولة.
- صورة : باقية وحيدة؛ وهي المقبولة.

فالصورة الفلسفية للتصوف وما شابها من أفكار المراتب التي تصل إلى (الإتحاد) و(الحلول) مرفوضة تماما.

و الصورة (التنظيمية) للتصوف وما فيها من خضوع وتبعية وإنحراف مشبوهة ومدخولة.

اما الصورة (التربوية) التي تعلي بتذكير المؤمن لربه وآخرته، وهو يعمل في دنياه ويتعامل مع الناس فهي الصورة الوحيدة المقبولة.. على أن تحرص التربية الصوفية على الإلتزام بالكتاب والسنّه. وتتوق أي إنحراف عنها ولو بدافع الورع أو ترقيق القلوب أو ترويض السلوك على الطاعة ..

ويرى الشيخ حسن البنّا في التربية الصوفية شحذا للهمّة، وتنميةً للعزيمة والمصابرة والعزة بالله. ويؤكد دائما أن التوكل على الله غير التواكل والتهاون والهوان والبلادة، وأن الزهد الصحيح هو أن يزهد المرء في ما يملك؛ فيوجهه لصالح الجماعة والأمة ولذوي الحاجة. وليس أن يزهد في ما لايملك فهذا زهد العجز الذي يعزي نفسه ويعللها بكسب الآخرة، وقد يكون بذلك خسر الدنيا والآخرة وذلك هو الخسران المبين. وإنّ حقيقة ذكر الله هي دوام مراقبته وخشيته في كل قول وفعل، وأنّ ذكره باللسان ينبغي أن يكون تعبيرا عن ما يجيش في القلب وأن يلتزم بالنهج المشروع في السنّه .

ويؤكد الشيخ حسن البنّا أن الصوفي الحق، صحيح الإعتقاد بريء من أي مظنّة للإشراك بالله الأحد الذي ليس له كفؤًا أحد.

ويذكر الشيخ حسن البنّا أن الشيخ (حسن الحصافي رحمه الله) – مؤسس الطريقه الحصافية، وهي إحدى الطرق الصوفية الكثيرة في مصر، وكان الشيخ حسن البنّا من اتباع الطريقة الحصافية في فتوَّته – زار مسجد الحسين مع بعض مريديه فزار قبره الزيارة المشروعة لقبور الموتى، وحين قال له أحد مريديه وتلامذته: ياسيدنا الشيخ سل سيدنا الحسين يرضى عنّي؛ فالتفت

إليه مغضبا وقال: يرضى عنّا وعنك وعنه الله.. وشرح لإخوانه أحكام الزيارة الشرعية.

وكان الشيخ حسن البنّا كثيرا ما يؤكد إقبال الصوفية - الجديرين بهذه الصفة وهذه التسمية - على الجهاد في سبيل الله وإعتبارهم إلتزام الثغور والمرابطة فيها أعلى مراتب العبادة. حتى إقترن في تاريخ (الرباطات) أو (الربط) في الإسلام جهاد العدو وإلتزام العبادة وتعليم القرآن والسنّة في أوقات الهدنة وإنقطاع القتال.. وكم ترنم الشيخ حسن البنّا بهذه الأبيات التي وردت في مساجلة بين شيخين زاهدين جليلين هما : عبد الله بن المبارك – وكان موصوفا بالحفظ و الفقه والعربية و الزهد والكرم والشجاعة و الشعر، له التصانيف الحسان والشعر المتضمن حكما جمّه وكان كثير الغزو و الحج، وله رأس مال نحو اربعمائة ألف يدور باتجاره به في البلدان، فحيث إجتمع بعالم أحسن إليه، وكان يربو كسبه في كل سنه على مائة ألف، ينفقها كلها في أهل العبادة والزهد والعلم وربما أنفق من رأس ماله، توفي في خلافة الرشيد (١٨١هـ) كما في البداية والنهاية – وبين الفضيل إبن عياض، إلتزم الأخير الصلاة والتعبد في البيت الحرام، بينما ذهب الأول لقتال الروم الذين كانت دولتهم تتاخم دولة الخلافة وتهددها، فكتب المجاهد إلى العابد سنة ١٧٠هـ بهذه الأبيات :

ياعابد الحرمين لو أبصرتنا لعلمتَ أنكَ في العبادة تلعبُ
من كان يخضبُ خده بدموعهِ فنحورنا بدمائنا تتخضبُ
أو كان يتعبُ خيله في باطلٍ فخيولنا يوم الصبيحةِ تتعبُ

ريحُ العبير لكم ونحنُ عبيرنا رهجُ السنابكِ والغبار الأطيبُ

وكان من ثمار توجيه الشيخ حسن البنّا أن اتجه بعض من تأثر به إلى دراسة الصوفية المجاهدة لإبطال الزعم بإنشغال الصوفية بما يسمى (الجهاد الأكبر) أي جهاد النفس ، وإيثارهم إيّاه على الجهاد الأصغر وهو جهاد العدو. فكتب العالم و السياسي التونسي (محيي الدين القليبي) من أقطاب الحزب الدستوري القديم بعد زعيمه البارز (عبد العزيز الثعالبي) (عن الرباط في سبيل الله) [٦].

.. وكتب الحافظ ابي الفداء إسماعيل ابن كثير القرشي الدمشقي في تفسيره للآية الأخيرة من سورة { آل عمران }: وهكذا روى الحافظ ابن عساكر في ترجمة عبد الله ابن المبارك من طريق محمد بن إبراهيم ابن ابي سكينة قال: أملى عليّ عبد الله بن المبارك هذه الأبيات بطرسوس حين ودعته للخروج ، وأرسلها معي إلى الفضيل بن عياض في سنة ١٧٠هـ وفي رواية سنة ١٧٧هـ

ياعابدَ الحرمين لو أبصرتنا	لعلمتَ انك في العبادة تلعبُ
من كان يخضب خده بدموعه	فخيولنا يوم الصبيحة تتعبُ
أو كان يتعبُ خيله في باطل	فنحورنا بدمائنا تتخضبُ
ريح العبير لكم ونحن عبيرنا	رهج السنابك والغبار الأطيبُ
ولقد أتانا من مقال نبينا	قول صحيح صادق لايكذبُ

٦ - من مقال الدكتور / محمد فتحي عثمان رئيس تحرير مجلة (ارابيا) الصادرة بلندن { حسن البنا متصوفا } بعدد مجلة الهلال المصرية يونيو ١٩٨٥م ..

لايستوي غبّار خيل الله في انف امرء ودخان نار تلهبُ
هذا كتاب الله ينطق بيننا ليس الشهيد بميت لايكذبُ[٧]

قال فلقيتُ الفضيل ابن عياض بكتابه في المسجد الحرام ، فلما قرأه ذرفتْ عيناهُ وقال : صدق ابو عبد الرحمن ونصحني ، ثم قال : أنت ممن يكتب الحديث ؟ قال قلتُ : نعم ، قال : فأكتب هذا الحديث كراء حملك كتاب أبي عبد الرحمن إلينا ، وأملى عليّ الفضيلُ بن عياض : حدثنا منصور بن المعتمر عن أبي صالح عن ابي هريرة : أنّ رجلا قال: يارسول الله علمني عملا انال به ثواب المجاهدين في سبيل الله فقال : (هل تستطيع أن تصلي فلا تفتر ، وتصوم فلا تفطر ؟) فقال : يارسول الله انا اضعف من أن استطيع ذلك ، ثم قال النبي صلى الله عليه وسلم (فوا الذي نفسي بيده لو طُوّقت ذلك مابلغت المجاهدين في سبيل الله اوما علمت أن الفرس المجاهد ليستنّ في طوله فيكتب له بذلك الحسنات ؟).. هكذا كان التصوف وهكذا كانت الصوفية.

وقال علامة حضرموت ومفتيها (أبو الحسن عبد الرحمن بن عبيد الله بن محسن بن علوي السقاف المتوفي بمدينة سيؤن عام ١٣٧٥هـ) متحدثا عن أستاذه وشيخه الأستاذ الأبر و الشيخ الأكبر (عيدروس بن عمر الحبشي المتوفي بمدينة الغرفة عام ١٣١٤هـ)، وملأت الأنوار جنانه، وملك الإتباع

٧. و لقد رأيتُ في كتاب (شخصيات استوقفتني) للشيخ البوطي عدم ثبوت نسبة الأبيات للإمام ابن المبارك. للفائدة انظر كتابه صفحة ٦٧ .

عنانه، فما حاد عن سيرة النبي بنانه، فتمسك بالشريعة، لايعد غيرها للنجاة ذريعة، يستحضر دقائق الفقه في آخر عمره، ويلتزم به في كل أموره.. إنه لايمكنُّ أحدًا من تقبيل يده إلامن زاد به إختصاصه جدا.. وإذا دُعي إلى وليمة أو نحوها بادر قبل إجتماع الناس كراهية أن يقوموا له إذا دخل و إن تكلف طول الانتظار من أجل ذلك.. ويكره المدحَ ويرفضه ويدفعه ويغضب من نسبة الكرامة إليه. فكأنما نظره ابو العلاء بظهر الغيب إذ يقول :

تبوح بفضلك الدنيا لنحظى بذاك ، وأنت تكره أن تبوحا

وما للـمسك في إن فاح حظ ولكن حـظنا في أن يفـــوحا

وقد تحدَّث في هذا الشأن كثير ممن يعتد به من الفقهاء عن أولياء الله وآثارهم، فقال الحجَّة الثبت/ أحمد عبد الحليم بن تيمية في الواسطية: "إن من أصول السنّة و الجماعة التصديق بكرامة الأولياء، ومايجري الله على أيديهم من خوارق العادات في العلوم و المكاشفات وأنواع القدرة والتأثيرات". وينحو هذا المنحى الحافظ إبن كثير في تفسير القرآن العظيم فيقول: "هذا إلى أنّ مايجريه الله من خوارق وعوائد على أيدي بعض أوليائه، من قلب بعض الأعيان ذهبا أو فضة ونحو ذلك فهذا أمر لاينكره مسلم ولايرده مؤمن". قال أبو يزيد البسطامي المتوفى عام ٢٦٤ هـ: (لو نظرتم إلى رجلٍ أعطي من الكرامات حتى يرتفع في الهواء؛ فلا تغتروا به، حتى تنظروا كيف تجدونه عند الأمر والنهي وحفظ الحدود).

وقال الشيخ علي بن أبي بكر السكران بن الشيخ عبد الرحمن السقاف المتوفى عام ٨٩٥هـ في كتابه (البرقة المشيقة): وأن تكون جميع أعمالك

موزونة بالكتاب و السنة و أن تكونَ سالكا على سنن الشريعة، وطرائقها البديعة، واجتهد أن تكون في جميع الأحوال لله ذاكرا و على النعم شاكرا، وعلى البلية راضيا و صابرا وعلى التوفيق بالطاعة حامدا وشاكرا، ومن الذنوب مستغفرا وتائبا، وللمولى في جميع قضائه ومقاديره مسلِّما، وفي جميع الأمور إليه مفوِّضا، وعليه متوكلا. اهـ، و قال العلامة السيد الجليل أحمد بن أبي بكر بن سميط في كتابه (تحفة اللبيب بشرح لامية الحبيب): "إعلم أن طريقة السادة آل أبي علوي[٨] أحد طرق الصوفية التي أساسها اتباع الكتاب و السنة.. و التصوف كله أدب لإعتناء الصوفية بمكارم الأخلاق و محاسن الخصال ".

وقـيَّض الله لهذا الدين رجالا سهروا على تنقية الكتب الإسلامية، وبيّنوا المدسوس فيها من الصحيح وعمل علماء المسلمين على تنقية التصوف الإسلامي، مما علق به من دسائس و أمور دخيلة عليه ليعود له صفاءه وبريقه، ولينتفع الناس من طاقاته الروحيه ونفحته الإيمانية **في هذا العصر الذي خيّمت عليه ظلمات مادية و آثام الإباحية وتيّارات الإلحاد والوجودية..** قال العلامة الداعية الإسلامي الكبير (أبو الأعلى المودودي المتوفى عام ١٤٠٠هـ / ١٩٨٠م) في كتابه مبادئ الإسلام تحت عنوان التصوف:

".. إن علاقة الفقه إنما هي بظاهر عمل الإنسان فقط، و ينظر إلى هل قمت بما أمرت به على الوجه المطلوب أم لا ؟ فإن قمت فلا تهمه حال قلبك

[٨] لها مؤلفاتها الخاصة، وينتـشر اتباعها في بلاد حضرموت وبعض نواحي اليمن والحجاز ومن أشهر أعلامها الإمام عبدالله بن علوي الحداد (١٠٤٤- ١١٣٢هـ) .

وكيفيته، أما الشي الذي يتعلق بالقلب وكيفيته فهو التصوف، إن الفقه لاينظر في صلاتك مثلا إلاّ هل اتممت وضؤك على الوجه الصحيح أم لا ؟ وهل صليت موليا وجهك شطر المسجد الحرام أم لا ؟ وهل أديت اركان الصلاة كلها أم لا ؟ وهل قرأت في صلاتك بكل ما يجب أن تقرأ فيها أم لا ؟ فإن قمت بكل ذلك فقد صحت صلاتك بحكم الفقه.

و الذي يهم التصوف هو مايكون عليه قلبك حين أدآئك هذه الصلاة من الحالة؛ هل أنبْتَ فيها إلى ربك أم لا ؟ وهل تجرَّدَ قلبُك فيها عن هموم الدنيا وشؤنها أم لا؟ وهل أنشأت فيك هذه الصلاة خشية الله و اليقين بكونه خبير بصير، وعاطفة إبتغاء وجهه الأعلى وحده أم لا ؟ والى أي حد نزّهتَ هذه الصلاة روحك ؟ والى أي حد أصلحتَ أخلاقك ؟ ولأي حد جعلتك مؤمنا صادقا عاملا بمقتضيات أيمانك ؟ فعلى قدر تحصّلك لهذه الأمور وهي من غايات الصلاة وأغراضها الحقيقية، تكون صلاتك كاملة في نظر التصوف، وعلى قدر ماينقصها من الكمال من هذه الوجهه تكون ناقصة في نظر التصوف .

فهكذا لايهم الفقيه في سائر أحكام الشريعة؛ إلاّ هل أدّى المرء الأعمال على الوجه الذي أمر به لأدائها أم لا ؟ أما التصوف فيبحث عن ما كان في قلبه من الإخلاص وصفاء النية وصدق الطاعة عند قيامه بهذه الأعمال .

ومثل الذي طاعته صحيحة في الظاهر ولكن يعوزه روح الطاعة الحقيقية في الباطن كمثل جسد جميل قد فارقته الروح .! "

ثم تحدث الأستاذ العلامة المودودي عن **الدخلاء** الذين تشبهوا بالصوفية بلباسهم وكلامهم، ولكنهم باينوهم بأفعالهم وأخلاقهم وقلوبهم، والتصوف منهم براءٌ. ومضى أبو الأعلى المودودي قائلا: "ولكنّ مما يدمي القلب ويبكي العين، أنه لما أصيبت العلومُ والأخلاق بالزوال و الإنحطاط في الأزمان الأخيرة وحدث بزوالها ما حدث من المفاسد والسيئات، كدّرت عين التصوف الصافية أيضا، وتعلّم المسلمون كثيرا من الفلسفات غير الإسلامية من الأمم الضالة، وأدخلوها في الإسلام بإسم التصوف، واطلقوا إسم التصوف على كثير من العقائد و الطرق الأجنبية لا أصل لها في الكتاب والسنّة. ثم تدرج هؤلاء الناس في تحرير انفسهم عن قيود الإسلام وقالوا إنه لاعلاقة للتصوف بالشريعة. فإن هذا في واد وذاك في واد، وما على الصوفي أن يقيّد نفسه بالقانون وأحكام الشريعة، إنك كثيرا ما تسمع بمثل هذه الأوهام و الترّاهات من كثير من الصوفية الجاهلين، ولكن ليست كلها في حقيقة الأمر إلاّ من قبيل الخرافات و الأكاذيب.

لايحلُّ لصوفيٍ أن يتحلل من قيود الصلاة و الحج والزكاة، ولايحل لصوفي أن يخالف حكما من الأحكام التي بيّنها الله ورسوله الكريم صلى الله عليه وسلم عن الإقتصاد و الإجتماع و المعاشرة والأخلاق والمعاملات و الحقوق والواجبات وحدود الحلال والحرام. ولايستحق من لا يتبع الرسول صلى الله عليه وسلم إتباعا صحيحا ولايتقيد بما أرشد إليه من الصراط الحق؛ أن يسمي نفسه صوفيا إسلاميا . فإن مثل هذا التصوف ليس من الإسلام في شيء أبدا، إنما التصوف عبارةٌ في حقيقة الأمر عن حب الله ورسوله الصادق

بل الولوعُ بهما والتفاني في سبيلهما. والذي يقتضيه هذا الولوعُ والتفاني أن لاينحرف المسلم قيد شعرةٍ عن إتِّباع أحكام الله ورسوله صلى الله عليه وسلم.

فليس التصوف الإسلامي الخالص بشيءٍ مستقلٍّ عن الشريعة وإنما هو القيام بأحكامها بغايةٍ من الإخلاص وصفاء النية وطهارة القلب.

وابو الحسن الندوي الداعية الإسلامي الكبير، كتب فصلا ماتعا ومفيدا عن الصوفية في الهند ودور الصوفية الإصلاحي في الهند، وتأثيرهم في المجتمع.

وللصوفية اصطلاحاتهم التي قامت بعض الشيء مقام العبارة في تصوير مدركاتهم و مواجيدهم، حتى عجزت اللغة عن ذلك، قال بعض العارفين كما جاء في كتاب (اليواقيت والجواهر) للإمام (عبد الوهاب الشعراني): نحن قوم يحرم النظر في كتبنا على من لم يكن من أهل طريقتنا، فمن إتضحت له عباراتهم وتعرف على إشاراتهم ومصطلحاتهم تبيّن له أنهم لم يخرجوا عن الكتاب والسنّة، ولم ينحرفوا عن الشريعة الغرّاء وأنهم الفاهمون لروحها الواقفون على حقيقتها الحارسون لتراثها.

و التصوف لا يُنال بقراءة الكتب ولا بمعرفة الإصطلاحات؛ بل لابد من السلوك مع رجاله ومجالسة أهله، قال الإمام الشعراني رحمه الله : سمعتُ سيدي (عليّاً الخوّاص) رضي الله عنه يقول: إيّاك أن تعتقد ياأخي إذا طالعتَ كتبَ القومِ وعرفتَ مصطلحاتهم في ألفاظهم، أنك صرت صوفيا. إنما التصوف التخلُّق بأخلاقهم، ومعرفة طريق إستنباطهم لجميع الآداب والأخلاق التي تحلوا بها من الكتاب والسنّة حتى يكون الصوفي:

من الرجال المصابيح الذين هموا كـأنّهم من نجـومٍ حـيّةٍ صُنِعوا

أخلاقهم ، نورهم ، من كل ناحيةٍ أقبلتَ تنظرُ، في أخلاقهم سطعوا

ونـرى العلمـاء العـاملين والمرشـدين الغيـورين ينصـحون النـاس بالـدخول مـع الصـوفية وإلتزام محبتهم؛ كي يجمعـوا بين جسـم الاسـلام وروحـه، وليتـذوقوا معـاني الصـفاء القلـبي والسـمو الخلـقي وليتحققـوا بـالتعرف عـلى الله تعـالى المعرفة اليقينية فيتحلوا بحبه ومراقبته ودوام ذكره .

ومعـاذ الله ان يـأتي التصـوف الحـق والزهـادة الخالصـة إلا بكل خـير، وقـد اعـترف أراكـين العلـم الغربيـون بأنـه لـم يفهـم الحيـاة الـدنيا الا الاسـلام وكيـف وقـد بلـغ بالإسـلام الحـال الى إيجابـه جهـاد كل بلـد قصر ـأهلـه في شيء مـن الحـرف أوالصـنائع . قـال الامـام النـووي في سـياق فـروض الكفايـة مـن مـتن (المنهاج): " .. والحـرف والصنائع ما يتم به المعاش. وقال شـرَّاحه لكـن لا يحتاج في هذه لأمر الناس بها لإن فطرتهم مجبولة عليها. لكن لو تمالوا على ترك واحدة منها أثموا، وقوتلوا كما هو قياس بقية فروض الكفاية". و القائم بفرض الكفاية افضل من القائم بفرض العين . قال العلامة ابن حجر الهيتمي في كتابة (التحفة): " ووجهه ان القائم بفرض الكفاية يرفع الحرج عن الامة اجمع ، والقـائم بفـرض العـين لا يرفـع الحـرج الا عـن نفسـه فقـط . فالاسـلام يقضي. للتاجر في حانوته والحداد في صناعته والزارع في حقوله وغيرهم من أهل الصنائع والحرف أفضل مما يقضي. للصائم المصلي، بشـرط أن يلاحظوا جانب الامتثال ..".

ومن أين ينفذ الطعن للسادة الصوفية رضوان الله عليهم ولشيخهم (الجنيد) حانوت يتَّجِر فيه ويستوفي به نوافله و أوراده [٩].

قال أبو الحسن الشاذلي رضي الله عنه : "من لم يتغلغل في علمنا هذا مات مُصِّـرًا عـلى الكبـائر و هـو لا يشـعر "[١٠]. وفي هـذا القـول يقـول إبـن عـلان الصديقي : "ولقد صدق فيما قال"، يعني أبا الحسن الشاذلي؛ فأيُّ شخص ياأخي يصوم ولا يعجب بصومه، وأيُّ شخص يصلي ولا يعجب بصلاته ؟ وهكذا سائر الطاعات. ولما كان هذا الطريق صعب المسالك على النفوس الناقصة فعلى الانسان أن يجتازه بعزم وصبر ومجاهدة حتى ينقذ نفسه.

<u>والتوبـة ليسـت مقصـورة فقـط عـلى المخطئـين والمجـرمين</u>.. فـإنَّ أهـل الطاعة محتاجون إلى التوبة كما يحتاج اليها أهل الذنوب والسيئات، ومن ظنَّ منهم أنه ليس عنده ما يتوب منه أو ظن انه مستغنٍ عن المتاب فقد زلَّ وظلَّ.

والتوبة يتطلبها هؤلاء من عدة جهات :

أ . من الخلل الذي يقع في الطاعات نفسها ، فإن أحدا قلما يأتي بالعبادة المطلوبة مبرئة من كل عيب. وإن العبد ينظر في صلاته أو في تلاوة كتاب الله مثلا فيجد أَضْبَاباً من الغفلة والشرود إعترضه في أكثر صلاته وتلاوته، حتى لا يدري كم صلَّى وماذا قرأ . و إذا كانت الصلاة بهذه الصفة، خالية من حضور القلب وخشوع الجوارح كانت حركات ظاهرية غير مؤدية الهدف المقصود من الصلاة وهو تطهير النفس وسمو الروح.

٩. من كتاب دفع الإفتراء و الإجتراء على الإسلام، للعلامة عبد الرحمن بن عبيد الله السقاف (مخطوط).

١٠. قد يفهم المقصد بأنه مثلا يكون متلبس بالرياء أو الكِبر وغيرها مما يعالجها التصوف.

لذا حذَّر النبي الكريم صلى الله عليه وسلم من الغفلة في الصلاة وأشار إلى أن مثل هذه الصلاة التي لم تصقل قلبَ مصليها، و لم تقربه الى الله هي مستوجبة للبعد عن الله وعدم رضاه، يقول عليه الصلاة والسلام : ((من لم تنهُ صلاتهُ عن الفحشاءِ والمنكر لم يزدد من الله الا بعدا)).

ومن الممكن أن ترفض له هذه الصلاة وكل ما شابهها من عبادة تؤدى مع الغفلة بتهمة ثابتة وهي: سوء الأدب ورداءة التقدم بها بين يدي الله عز وجل وقد أشار بعضهم الى ذلك بقوله :

تُصلي بلا قلبٍ صلاةً بمثلها ... يكونُ الفتى مستوجباً للعقوبةِ
تظلُّ وقد أتممتَها غيرَ عالمٍ ... تزيدُ إحتياطاً ركعةً بعد ركعةِ
فويلك : تدري من تناديهِ معرضاً ؟ ... وبين يدي من تنحني غير مخبتِ
تخاطبهُ إياكَ نعبدُ مقبلاً ... على غيرهِ فيها لغيرِ ضرورةِ
ولو ردَّ من ناجاكَ للغيرِ طرفهُ ... تميزتْ من غيظ عليهِ وغيرةِ
أما تستحي من مالكِ الملكِ أن يرى ... صدودكَ عنه يا قليلَ الرَّويةِ ؟
إلهي اهدنا فيمن هديتَ وخذْ بنا ... إلى الحقِّ نهجاً في سواءِ الطريقةِ

ومن أجل ذلك التقصير المستمر شُرع الأستغفار في أعقاب الصلوات .

ب . من الظن بأن هذه الطاعات هي منتهى حق الله عليه وأن من قام بِأدائها قد فرغت ذمته، ودفع لله ثمن نِعمهُ وثمن جنته، وقد نسي هذا المغرور أن النعمة الواحدة من نعم الله ترجح بعمله كله يوم القيامة، وأن أحدا لن يدخل الجنة بعمله ما لم تشمله رحمة الله تعالى. عن أبي هريرة رضي الله

عنه قال أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : ((ما من أحدٍ يدخله عمله الجنة فقيل : ولا أنت يا رسول الله ؟ قال: ولا أنا الا ان يتغمدني الله برحمته)).

ج . من التمسك ببعض القربات وغيرها اوجب منها وألزم، فيستمسك بالحَسن ويترك الأحسن، وربما كانت الضرورة ملحة جدا للأخذ بالأحسن.

فالغني الذي يستكثر من الصلوات ويقتصد في النفقات والبذل في حين أن المحتاجين والمعوزين يئنّون حوله من ألمِ الحرمان، يجب عليه أن يتوب من هذا المسلك، لأن الواقع يحتاج غير هذا السلوك. والعالم البليغ الذي يصوم الإثنين والخميس ويلوذ بالصمت أو بالإيجاز في مواطن الزجر والنصيحة يجب أن يتوب من هذا المسلك . والرجل الذي يعطي ثم يمنُّ أو يطلب بعطائه الصدارة بين الناس رجل يحبط بهذا المسلك عمله ويضيع أجره فعليه أن يتوب.

وهكذا فإنَّ كثيرا من الأعمال الطيبة يأتي بها بعض الناس ويؤثرها على غيرها لأنها أدنى إلى هواه او أقرب الى السلامة أو يجني من ورائها فائدة دنيوية. فعلى الإنسان أن يحذر من دسائس الشيطان وأن يكون عمله مقرونا بالإخلاص والإحسان. #

خاتمة

قال أبو علي الفضيل بن عياض -رحمه الله- المتوفى ١٨٧هـ بمكة :

(عليكَ بطريقِ الحقِّ ولا تستوحشكَ قلةُ السالكين، وإياكَ وطريقُ الباطلِ ولا تغترَّ بكثرة الهابطين، وكلما استوحشتَ من تفردكَ؛ فأنظر الرفيقَ السابق واحرص على اللحاقِ بهم وغضَّ الطرفَ عن سواهم، فإنهم لن يغنوا عنك من الله شيئا. وإذا صاحوا بك في طريق سيرك؛ فلا تلتفتْ إليهم، فإنكَ متى التفتَّ إليهم؛ أخذوكَ وعاقوكَ !!)[١١]

ومجالُ الصوفية مجالٌ واسع وكُتبتْ فيه، وفي التصوف وعن الصوفية مئاتُ الكتب..

ولكني كما ذكرتُ أنني بهذا البحث الموجز القصير؛ **إذا حركتُ شعورَ القارئ وأثرتُ مداركه للإستزادة والمتابعة، وبعث روح الشوق إلى المعرفة والحقيقة والإرتقاء بالنفس الى الأعالي**.. فقد بلغتُ ما قصدتُ او بعضه .

واللهُ من وراء القصد ومنه الإعانة والتوفيق ..

مدودة

١٤٢٤هـ ٢٠٠٣م

١١. انظرمدارج السالكين لابن القيم (٢٢/١) وكذلك ايقاظ الهمم في شرح الحكم العطائية لابن عجيبة ص٧.

من مصادر البحث

حقائق عن التصوف	الشيخ عبد القادر عيسى	حلب ١٣٨١هـ
المنقذ من الضلال	حجة الاسلام الغزالي	دار الأندلس
إحياء علوم الدين	حجة الاسلام الغزالي	دار الفكر
التصوف السلامي في الآداب والأخلاق	د/ زكي مبارك	المكتبة العصرية
الكامل في التاريخ	ابن الأثير	دار الفكر
البداية و النهاية	ابن كثير	دار الفكر
مبادئ الإسلام	ابو الأعلى المودودي	دار الفكر
المستشرقون و التراث	د/ عبد العظيم الديب	جامعة قطر
تلبيس ابليس	الامام ابن الجوزي	دار الفكر
البرقة المشيقة	علي بن أبي بكر السكران	-
أدام القوت	عبد الرحمن بن عبيد الله	م الأرشاد / صنعاء
الأخلاق عند الغزالي	د/ زكي مبارك	المكتبة العصرية
مقدمة ابن خلدون	عبد الحمن بن خلدون	درا القلم بيروت
النوادر السلطانية	ابن شداد	مطبعة الجوائب
ربانية لا رهبانية	ابو الحسن الندوي	مؤسسة الرسالة
الحب بين العبد و الرب	أحمد نصيب المحاميد	دار افكر

تجادلَ الناسُ في الصوفيِّ و اختلفوا
جهلاً و ظنُّـوهُ مشـتقاً من الصَّوفِ
و ليــسَ يُمنحُ هذا الإسـمُ غيرَ فـتىً
صافى فصُفِّيْ لهذا سُمّي الصُّوفي

الصوفي

سلسلة إصدارات مكتبة الشيخ
سالم زين باحميد (٥)
حضرموت – سيؤون/ مدودة
ابريل ٢٠١٨